

خطاب طه حسين باشا أمام جلالة الملك في معهد الصحراء

طه حسين
جريدة الأهرام
٣١ ديسمبر ١٩٥٠

مولاي صاحب الجلالة:

ما أروع هذا الدرس الذي تلقيه على شعبك في هذه الأيام خاصة، درس في الوفاء! ما أجدر الناس أن ينتفعوا به وأن تصطبِرْه قلوبهم وعقولهم! فمِنذ ثلاثة أيام كنّا نحتفل بمأثرة جلييلة من مآثر والدك العظيم، هي جامعة فؤاد الأول. وأمس كنا نحتفل بمأثرة عظيمة من مآثر جدك الكريم، هي الجمعية الجغرافية. ونحن اليوم نحتفل بهذه المأثرة الكبرى من مآثر فؤاد — نضر الله وجهه — وهي معهد الصحراء.

وأنت أمامنا دائماً يا مولاي في هذه الحفلات، تشرفها فتملاً قلوبنا غبطةً ونفوسنا ابتهاجاً، ويرى الشعب عنايتك بالعلم والعلماء، كما كان يرى عناية أبيك بالعلم والعلماء، فيرى صورة جلييلة رائعة من صور الوفاء الذي لا نظير له والذي لا حدَّ له. أنت جدير أن تكون أستاذ شعبك في

الخلق، في الخلق الذي يَمَسُّ سيرة الفرد فيما بينه وبين الناس، وفي الخلق الذي يمس سيرة الشعب مع ملكه وسيرة الملك مع شعبه.

أنت تعلم الناس كيف يفى الأبناء لذكرى آبائهم، وتعلم الشعب كيف يقتدي الشعب بملكه، فيفي للملوك الصالحين المصلحين.

وكان والدك العظيم يا مولاي أجدر الناس بوفاء الأبناء للآباء، وأجدرهم بوفاء الشعوب للملوك، ولا أغلوف في أن أقول إنه كان أجدر الملوك بوفاء الإنسانية لذكراهم الخالدة. فليس قليلاً أن ينشئ في الشرق العربي وفي العالم الإسلامي أول جامعة حديثة على النحو الحديث، وليس قليلاً أن ينشئ في العالم الشرقي والإسلامي أول معهد حديث للصحراء.

هذه الجامعة لا تنفع مصر وحدها وإنما تنفع الناس جميعاً. وهذا المعهد لا ينفع مصر وحدها وإنما ينفع العالم كله. ذلك يا مولاي أن معاهد العلم ليست مقصورة على وطن ولا على جنس، وإنما هي مشاعة للإنسانية كلها، فمن أنشأ معهداً أو جامعة لم يخدم وطنه وحده وإنما خدم الأوطان كلها.

كان والدك العظيم أجدر الناس منك بهذا الوفاء، وأجدر الناس من شعبه بهذا الوفاء؛ لأنه لم يكتفِ بما أنشأ من جامعة، ولا بما أحيا من الجمعية الجغرافية، ولا بما نشر من ألوان الحضارة على اختلافها، وإنما فكر وقدر وغامر في هذه المغامرة العقلية الكبرى التي لا يغامر بها إلا العظماء. غامر وفكر في تقريب البعيد، وإزالة مصادر الخوف والهلع والهول،

وتخصيب الصحراء وتأمينها، وجعلها مصدرًا للعلم والمعرفة والأمن والهدوء.

نحن يا مولاي أشد الناس ذكرًا للصحراء وتأثرًا بها. إن الصحراء تأخذنا من جانبيّنا، وليس نيلنا العظيم إلا شيئاً ضئيلاً يجري بين صحراويين هائلتين.

فالتفكير في الصحراء إنما هو تفكير في توسيع النيل حتى يعم الأرض بالخير، وحتى يغمر جانبيه جميعاً بالخصب والنماء. ولكننا لا نذكر الصحراء يا مولاي لأنها تأخذنا من جانبيّنا، وإنما نذكرها كذلك لأن أدبنا العربي القديم لم يصور شيئاً كما صور الصحراء، صوّرها رائعة مروعة، صورها مملوءة بالهول والخوف والذعر، صورها مكمناً للخوف والعذاب، صورها يحيط بها الخوف من جميع جوانبها، وتجري فيها السباع حرة طليقة تغتال الإنسان إن عرض لها أو وقع بين أيديها.

كذلك ترك أدبنا العربي لنا من الصحراء صورة الروع والخوف والهول. ولم يُردِّ والدك العظيم يا مولاي إلا أن يزيل هذا كله، وأن يجعل الصحراء مصدرًا للبحث والعلم والمعرفة والنور، وأن يتيح للناس أن يعرفوها كما يعرفون أرضهم الخصبة، وأن يستغلوها كما يستغلون أرضهم الخصبة، وأن يجنوا منها الخير والبركة والنفع. أراد ذلك يا مولاي حين فكّر في أن يجعله مباءة للباحثين عن شئون الصحراء، يدرسون أرضها وجوها، يدرسون نباتها وحيوانها، يدرسون خصائصها كلها؛ ليعلموا الناس

أولاً، وليبيحوا لهم النفع والانتفاع ثانياً. أباح لهم مصدرًا من مصادر العلم، ومصدرًا من مصادر السيطرة على الطبيعة المخيفة الشاذة.

كذلك فكّر والدك العظيم، ولم يكد يُفكّر حتى همّ، ولم يكد يهمّ حتى فعل، فأنشأ المعهد يا مولاي، وأراد أن يُنشئه هو وحده بقوته وبماله، لا يطلب إلى الحكومة إنشاءه. مغامرة غامرها وأراد أن يحتمل نفقاتها، حتى إذا ظهر نفعها وفائدتها انتفع بها الشعب وانتفع بها الناس دون أن يتكلفوا فيها شيئاً. أنشأه ووقف عليه وقفاً ضخماً يكفل له ما يحتاج إليه من مال. ولم يكتفِ بوقف الأرض الخصبة، وإنما وقف البناء الشامخ، ثم أدركه قضاء الله وانتقل إلى جوار ربه قبل أن يُتِمَّ ما بدأ، فأقبلت أنت تحمل اللواء وتمضي إلى الغاية وتتم الطريق التي بدأها.

وهذا هو المعهد يُفتتح الآن، وهؤلاء هم علماء العالم يُقبلون ليشاركوا المصريين في تكريم ذكرى والدك العظيم، وفي رفع الشكر الخالص إلى جلالتك لما ترعى به العلم والعلماء، ولما تيسر لهم من أسباب البحث والمعرفة، ومن أسباب هذا الغنى الذي لا يختص به الناس إلا إذا كانوا جميعاً في جميع الأقطار والبلاد. هذا المعهد يا مولاي ثمرةٌ إذن من ثمرات ذلك المُلْك السعيد الذي أشرف عليه والدك العظيم، ولكنه ثمرة بدأها هو وأنضجتها أنت، فإذا وفيت لوالدك العظيم فشهدت هذا الحفل وأتممت ما بدأ، فالشعب المصري كله يتعلم منك الوفاء.

على أنك يا مولاي عندما عُنيتَ بهذا المعهد نظرت فإذا العلم من حولك يتقدم، وإذا أشياء جديدة تظهر لم تكن معروفة حين فكّر والدك في هذا المعهد، وإذا جامعته التي أنشأها قد أخرجت شبابًا يُحسِنون درس الصحراء ويستطيعون النهوض بأعبائها.

إن في المعهد مكتبة ضخمة، وفيه مُتحفًا ضخماً وقاعةً للمحاضرات، وستكون من حوله حديقة خاصة لا تشتمل إلا على النباتات والأشياء الصحراوية، فيه كل ما يحتاج إليه العلماء للبحث والإنتاج. وكان والدك العظيم يا مولاي أبعد الملوك عن الأثرة وأقلهم تفكيرًا في نفسه، وكان يريد أن يكون وطنه مثله بعيداً عن الأثرة. كان يفكر في أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش فردًا، وفي أن الأوطان والشعوب لا تستطيع أن تعيش منفردة. كان يفكر في أن التضامن والتعاون أساس الحضارة، وهو من أجل ذلك فكّر في أن هذا المعهد سيكون حلقة يلتقي فيها العلماء من جميع أقطار الأرض، العلماء الذين يُعَنَوْنَ بشئون الصحراء، وسيكون معهداً يتعاون فيه على البحث المختصون مهما تكن مواطنهم، ومهما تكن أجناسهم.

كذلك أراد هو، وكذلك أردت أنت، وقد تحقق له ولك ما أردتما. هؤلاء العلماء الذين أقبلوا الآن لمصر يشاركونها هذا الحفل دليلٌ واضح على أن ما أراده والدك العظيم من تحقيق التعاون الإنساني على البر والتقوى والمعرفة، وما أردته أنت من تحقيق التعاون، قد تحقق بأمره وأمرك وأتى ثمره الآن.

فلك يا مولاي أجمل الشكر وأخلص الإجلال على عنايتك بهذا المعهد،
ولوالدك العظيم رحمة الله ورضوانه، نضّر الله وجهه يا مولاي وأنزله
منازل الصالحين المصلحين.